مجلة المجمع العلمي العربي

( دمشق ) حزيران : سنة ١٩٢٩ م الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٧ والمحرم ١٣٤٨ هـ

# الانشاء الخطابي

للكتابة إنشاء خاص وللتكلم انشاء آخر ، ومن يجيد الواحد قد لا يجيد الثاني ، بل ربما كان تنافض بين الاثنين ، فان السواد الاعظم من مشاهير الكتاب لم يكونوا خطباء وبخلاف ذلك قلما تجد بين الخطباء من لا يعد كاتباً .

واذا كان الكاتب غير الخطيب فليس ذلك فقط لانه لا يعرف ان يتكلم كما يعرف ان يكتب ، بل ايضاً لان كتابته لا توافق المنبر ، فان المكتوب يُنال بالنظر ويُذاق بالفكر ، واما المقول فلا يصل الى القلب الا اذا مر بالاذن ، وللأذن إحساس يجب ارضاؤه ، ونعومة يحاذر من تخديشها ، والشعور الذي يثيره السمع ليس كالذي تولده القراءة فضلاً عن ذلك فان عقلية الجمهور المحتشد في مكان عمومي تختلف عن عقلية الفرد المعتزل في غرفته .

إذن للسمع إنشاء كما للقراءة إنشاء ، فما هي اصول هذا الانشاء وقواعده ؟

قال ابن المعتز والشيباني : إن البلاغة بثلاثة امور : (١) ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر وتتأمل بوجوه العواقب وتجمع بين ماغاب وحضر . (٢) ثم يعود القلب على ماعمل به الفكر فيحكم سياق الأدلة ويحسن تنضيدها . (٣) ثم يبديه بالفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها .

هذه الأركان الثلاثة التي تقوم عليها البلاغة هي مايسميه الافرنج في تقسيمهم بالاختراع او الايجاد والتنسيق والتعبير .

فالاختراع اوالايجاد : هو استنباط الوسائل الخليقة باقناع السامع وتحريك عواطفه



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه الوسائل يقال لها الأدلة . وتسهيلاً لاستخراجها وضع الأقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها ، وأطلق عليه العرب اسم مواضع . قال ابن سينا : ان الحجج في الجدل والخطابة تكتسب من المواضع ، فمن طلب الاقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل في الموضوع بل لنقص في الاستعداد .

والتنسيق : هو تنظيم الخطبة وربط أجزائها بعضها ببعض وترتيبها ترتيباً جميلاً .

والتعبير : هو افراغ المعنى في القالب الموافق والباسه الحلة اللائقة به .

ولكن هذا التقسيم يشمل الكاتب والخطيب معاً فكلاهما يحتاج في البلاغة الى الاعتماد على هذه الأركان الثلاثة ولا يبدأ الفرق بين الاثنين الا عند الركن الثالث ذلك لان الخطاب لم يعمل ليقرأ بل ليسمع فيجب ان يتبع التعبير فيه الذوق ومايدعو اليه المقام من تقصير الجمل او تطويلها ، والتكرار تارة والتسجيع طوراً ، وانتقاء الألفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع المؤثرة فيه ، والتحليق في سماء الخيال حيناً ، والنزوع الى الكتة حيناً آخر مع تطبيق ذلك على مايضاف اليه مما يكمله كالاشارة والملامح والنظرات ونبرات الصوت وسائر مايمكن الانسان الحي ان يعطيه من الحياة الى هذا الشيء الحي الذي يقال له خطاب .

وها نحن اولاء نبحث فيما يلي عما يتعلق بهذا التعبير و يجعل للانشاء الخطابي مسحة خاصة به مفردين فصلاً آخر لما نسميه مكملات الخطيب او مزايا المنبر .

— ١ —

ان الكلمات التي تتألف منها الجمل هي كحجارة الفسيفساء لها لونها الخاص وشكلها المحدود ولكنها تمثل صوراً مختلفة حسب تركيبها وتداخلها بعضاً في بعض فكما انك قد تجعل من قطع الفسيفساء صورة تدل على الحسن او القباحة واللذة اوالالم وغير ذلك من الاضداد تبعاً للطريقة التي تؤلف بها بينها كذلك تستطيع حسب اختيار الألفاظ وتركيبها ان تمثل هذه العاطفة او تلك تمثيلاً كاملاً او ناقصاً ولا يتم لك الاتقان والاجادة الا اذا وقع اختيارك في موقعه وكان لك اللفظ الموافق والتعبير الصادق .

من الألفاظ ماهو نغم كأنه يجر ذيول الارجوان أنفةً وكبرا .

ومنها ماهو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنها ما هو كالسيف ذي الحدين ·

ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يلقيه الشعر على بعض العواطف ليستر من حدتها و يخفف من شدتها ·

ومنها ما له وميض البرق ·

ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء ·

من الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد · ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعد للرضى والغفران ·

ومنه ما يضيء كالشهب وهو كلام التعظيم ·

كذلك من الكلمات ما ليس له طابع خاص وانما يؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى فهو يوافق كل حال ·

تلك هي الادوات المعدة لبناء الخطبة تتطلب مهندساً بارعاً ومصوراً حاذقاً ليؤلف بينها تأليفاً موافقاً و يخلع عليها برداً جميل النسج لامع الديباجة يترجم معنى العظمة او الجمال او اللطف او القوة كما في قطع الفسيفساء ·

ان البلاغة لاتقتصر على افهام السامع كلام القائل والا « لتساوت الفصاحة واللكنة والملحون والمعرب » وانما المقصود الافهام على سنة كلام البلغاء بان يجعل لكل طبقة كلام ولكل حال مقام فيخلع الخطيب من الفاظه على معانيه حلة نور وضياء ليتسنى للسامعين ان يشاركوه في تلك الرؤيا الجميلة التي تتجلى في خاطره وبين تصوراته ، ولا يكون الخطيب فيما يقول كالرجل الذي يكثر من الاشارات في الظلمة ثم هو يتعجب كيف لا يراه الناس ·

— ٢ —

ان الاساس الذي بني عليه الانشاء الخطابي هو العاطفة والشعور لان الغاية الاولى من الخطاب هي ان تنقل مافي قلبك من الاحساسات الى قلوب سامعيك · قال «دلامبر» ان الذي يكتفي بالاقناع دون التأثير هو متكلم لا بليغ وقال «رفالور» إن العواطف والاهواء هي الخطيب في الجماهير · وقال « ميرابو » السر كل السر في البلاغة الخطابية ان يكون الانسان ملتهباً بالعواطف · قال الحسين وسمع متكلماً يعظ فلم تقع موعظته من قلبه بموضع « يا هذا ان بقلبك لشراً او بقلبي » يريد ان الكلام الخالي من العاطفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد يكون مفعماً بالحقائق ولا يجد مع ذلك سبيلاً الى النفس .

وبما ان الشعور هو اساس الخطبة كانت البساطة أجمل حلة يلبسها الانشاء الخطابي ولا أعني بذلك ان يكون الكلام مبتذلاً عامياً بل ان يوافق الزمان والمكان فللمعاني العظيمة كلام عظيم كما بينا . ولا يستلزم كون الجمهور من العوام ان ينزل الخطيب باساليب التعبير عن مقامها بل عليه ان يرفع العامة نحوه لان الفن فن اينما كان .

— ٣ —

و يأتي بعد العاطفة الخيال لان الخطيب شاعر ان حققت ، الا ترى ان سرعة البداهة وحدة التصور وجيشان الخاطر وكل ما يمتاز به الشعراء موجود عند الخطباء فكن القوة العقلية الواحدة باختلاف وجهتها وتباين مذاهبها قد انتجت عند بعض النوابغ تارة بلاغة القلم وطوراً بلاغة اللسان .

لا ريب ان اللورد ( بيرون ) الشاعر الانكليزي المشهور عندما كان يجول بجواده فوق شواطئ الليدو وهو ينشد في الفضاء أشعاره السامية الغريبة و يلتي من حوله على الكائنات نظر السيد المعتز بمجده ، المباهي بشبابه ، المفاخر بجمال طلعته ولمعان نبوغه وما اعطاه الله من واسع السلطان في مملكة الهوى ، مخضعاً لدى قدميه الفلاحة الحائرة والسيدة المتدللة ، منتصراً على مطامع الرذيلة ومخاوف الفضيلة ، لا ريب ان ذلك الامير لم يكن حينذاك شاعراً فقط بل كانت عواطفه الثائرة تندفق من فؤاد خطيب فيلبسها حلة من شعره الجميل ولكن بعد ان تُسكب في قالب خطابي بما فيها من غزارة وخيال وتصور خلاب .

واذا نظرت فيما كتب هيكو اونظم مثل ( كرمو يل ) و(الرجل الضاحك) و(القصاص) تبين لك انه لم يكن يتخذ غير لغة الخطابة كأنما هو يتمرن على الدور السياسي الذي كان مخبأ له في طيات الزمان .

كذلك لامارتين فقد حرك اوتار قيثارته على منبر السياسة فأفلح خطيباً كما أفلح شاعراً .

وكما كان بيرون الشاعر خطيباً كان جورجيس الخطيب شاعراً وقد روى مؤرخوه انه وهو ابن عشرين كان يتمشى كالملهم على شواطئ الكارون مردداً في الفضاء نثره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجميل . وله صفحات شعرية خالصة في كتابه « حقيقة العالم المحسوس » كأنه وهو تحت وميض الالهام وبين عوالم الاحلام يسائل الوجود من كل نواحيه و ينحني على صدر الارض واضعاً أذنيه مصغياً اليها كمن يجس او يبحث عن نبض العالم .

على ان هذا الخيال وما اليه من حدة التصور وغليان الخاطر ليس ضرورياً لكل خطيب فكما ان من المصورين من لم يكن مثل ليونارد ده فنسي فمن الخطباء من لا يعرف التحليق في سماء الخيال وهو يستطيع بكلمة او صورة او صوت ان يحرك العواطف و يثير الأشجان . هكذا كان ( والدك روسو ) احد زعماء السياسة الفرنسوية في العصر الغابر القائل في احدى خطبه هذه الجملة المشهورة « يجب على المالك ان يعمل وعلى العامل ان يمتلك » .

وفي العرب كثير من الخطباء الشعراء او الشعراء الخطباء وقد افردنا لهم فصلاً خاصاً .

ومن الأمثلة الجميلة على الانشاء الخطابي الشعري هذه الفقرة التي نقتطفها من خطبة لجوريس :

« رأيت أحياناً في طريق الجبل بعض الفلاحات العجائز عائدات من الغابة حاملات فوق ظهورهن أحمالاً من الاغصان الخضراء . فكانت الريح عند مرورها بتلك الاغصان المورقة توقظ من حول الفلاحة العجوز حفيف الأحراج الواسعة ولكن العجوز لم تكن تسمع هذا الحفيف بل كانت تمشي بخطاها المتثاقلة دون ان تعي نشيد الأحلام الذي كانت تسمعه في أذنيها قطعة الغاب المحمولة على ظهرها » .

« أجل هكذا هو العامل المسكين يمشي محاطاً بنسمات الطبيعة دون ان يسمعها . كيف تريدون منه بعد جهده الطويل من طلوع الشمس الى غيابها ، عندما يشعر ان عمله المضني ليس عملاً حراً وانه قد يجرد منه في الغد لغير ما سبب ، عند ما يجد نفسه مقيداً بادواته التي تضنيه وربما فارقها في غده مكرهاً ، كيف تريدون منه وهو على هذه الحال من التعب والاستعباد يساوره الوجل والاشفاق ان لا يتاح له في غده مايطعمه و يطعم ذويه ، كيف تريدون منه ان يرتفع فكره بالحلم فوق ضجيج المصانع الذي يصم الاذان ليقول في نفسه ان هذا الضجيج الخارج من الادوات العاملة هو جزء من الموسيقى الكونية . . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الشيء سيعرفه في غدٍ عندما نعطيه الحرية .

ومثل ذلك هذه الفقرة الثانية من خطاب لهيكو في مجلس الأشراف عندما طلب جيروم نابوليون السماح له بالعودة الى فرنسا .

ايها السادة : لاحاجة لان اقول لكم ان غايتي ليست اثارة الشجون اوالاحقاد ولكني أشعر لدى صعودي هذا المنبر انني أؤدي واجباً علي . ان الذي يدفع هذا العاجز الى نصرة جيروم نابوليون وهو في منفاه ليس فقط عقائد نفسي بل كل تذكارات صباي . فكأن في هذا الواجب شيأ من الوراثة و يخال لي ان ابي ذلك الجندي القديم للملكية هو الذي يأمرني ان أقف وأتكلم . ولهذا أخاطبكم ياسادة كمن يؤدي واجباً على انني كما ترون لا أوجه كلامي الا الى اشرف واطهر وارصن ما في ضمائركم . من اجل هذا اريد ان أقول لكم في الختام كل رأيي في ظلم هذا القانون الفادح الذي اسأ لكم الغاءه .

ايها السادة : هذه المادة من القانون الفرنسوي التي تنفي الى الابد أسرة نابوليون من الارض الفرنسوية تبعث في نفسي شيأ لا أعرف له نظيراً ولا استطيع عنه تعبيراً . وتسهيلا لفهم ما اريد ان اقول سأفرض فرضاً مستحيلاً : لاريب ان تاريخ الخمس عشرة الاولى من هذا القرن ، هذا التاريخ الذي كتبتموه انتم ايها الابطال والقواد المحترمون الذين أحني رأسي أمامهم والذين يصغون الي في هذا النادي ، هذا التاريخ لا يزال له دويّ في أذن العالم قاطبةً وربما لاتجدون في أقصى المعمور رجلاً لم يسمع به فقدوجدوا في الصين في معابد الآلهة تمثال نابوليون . اجل اني افترض — وهذا هو الافتراض المستحيل ولكنكم تسمحون به — افترض ان في زاوية من هذا الكون الواسع رجلاً لم يعرف شيأ عن هذا التاريخ ولم يسمع ابداً اسم الامبراطور . وافترض ان هذا الرجل جاء فرنسا وقرأ هذه المادة التي تقول : « ان أسرة نابوليون منفية الى الابد من ارض فرنسا » افتدرون ماذا يجول في خاطر هذا الغريب ؟ انه أمام هذا العقاب الهائل ليتساءل من تُرى يكون نابوليون هذا ! ويقول في نفسه انه لاريب كان مجرماً عظيماً وانه من المؤكد ان عاراً لايمحى لاصق باسمه ومن يدري فلعله قد انكر آلهته وباع أمته وخان وطنه الى آخر ماهنالك . ان هذا الغريب ليتساءل بشيء من الجزع ماهي الآثام العظيمة التي استحق من اجلها نابوليون هذا ان يُعاقب هكذا في سلالته الى الأبد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ايهـا السادة هذه الآثام سأعددها لكم : هي الدين مرفوع الرايات ، هي القانون المدني محكم الآيات ، هي فرنسا متسعة النطاق الى ابعد من حدودها الطبيعية ، هي يانا ، سارنكو ، واكرام ، استرلتز هي اغلى وابهى مهر من القـدرة والمجد يستطيع رجل عظيم ان يقدمه الى أمة عظيمة .

ايها السادة ان شقيق هذا الرجل العظيم يستعطفكم في هذه الساعة ، هو شيخ عاجز ، هو ملك قديم يسترحمكم اليوم ، أعيدوا له ارض الوطن . ان جيروم نابوليون لم يكن له في الشطر الاول من حياته الا رغبة واحدة ، ان يموت في سبيل فرنسا . ولم يكن له في الشطر الثاني من حياته الا فكرة واحدة ، ان يموت في ارض فرنسا . فلن تخيبوا هذا الرجاء .

— ٤ —

اما الاكثار من الأدلة والحجج والاغراق في الشرح والتفصيل ، والاسهاب في البيان والتعليل ، فذلك جائز في نثر الكاتب لان للقـارئ متسعاً من الوقت للتأمل والتبحر بخلاف السامع الذي يتلقى الجملة بعد الجملة ولا قبل له بالمراجعة او التوقف ، بل تراه مضطراً الى اتبـاع الخطيب والتقاط أقواله المتدفقة على سمعه ولهذا كان من اللازم ان تأتي هذه الأقوال واضحة صريحة مختصرة تفعل بالجزم والتأكيـد اكثر مما تفعل بالتعليل والبرهان .

ان القارئ حرٌّ في متابعة قراءته او التوقف للاستراحة او التأمل ، واما السامع فهو معلق بشفتي الخطيب محمول معه في كل ناحيـة لا يستطيع الوقوف او الاعراض دون ان تنقطع عرى الالفة بينهما فيذهب من الخطاب رونقه او بعض رونقـه وتفوت السامع فائدته او جزء من فائدته .

وبقدر ما يقتصد الخطيب على السامع في الفاظه وجمله يوفر من انتباهه ليستطيع إدراك معانيه والتأثر بها لان اللغة كما لا يخفى هي في آن واحد آلة للنقل وعائق دونه .

فالانشاء الخطابي يختلف كثيراً عن انشـاء الكاتب لاضطرار الخطيب ان يتبع فيه احوال نفسه والمكان الذي يتكلم فيه والجمهور الذي يصغي اليه فتكون « اللفظة في وزن الاشارة والمعنى في ظيقة اللفظة » فيفصل بين الجمل و يكرر بعض الكلمات او يكثر من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض النعوت مسهباً هنا موجزاً هناك متمهلاً في بعض المواضع مسرعاً في غيرها ، واقفاً حين يرى ضرورة الوقوف ليترك للسامع مجالاً يستوعب فيه ما اراد ان يلقيه اليه او يقصر انتباهه عليه .

ومهما يكن من اهمية الموضوع والاجادة في انتقاء الالفاظ وتخير المعاني فلا ينفع ذلك في محاربة ما يجلبه اسهابه او الضرب على وتيرة واحدة من العواقب التي لا تحمد . الا ترى ان إطالة النظر الى الغدير الجاري والاستمرار على سماع خرير العذب يفضيان بنا الى النعاس ؟ بل ان هدير الأمواج المتصاخبة ، وزئير الرياح العاصفة ، ولمعة الرعود على ما فيها من تهييج الاعصاب تنتهي بنا الى النتيجة عينها اذا طال امرها وتعودت عليه الاذن وألفه الخاطر . فلا تكونن بلاغة الخطيب حجة له في إطالة الشرح والتمادي في الاسهاب .

ان العبرة كل العبرة هي ان يحمل الخطيب عقول سامعيه في سيل من العبارات الجميلة الموسيقية فيهز تلك العقول هز الطفل في السرير ويملك عليها جهد التفكير ويخدر فيها حاسة النقد ويجعلها في شبه غيبوبة من سكر الفصاحة ، ثم تأتي كلمة هي الكلمة الفاصلة المنتظرة مدعومة احياناً بنبرة في الصوت او ضربة على المنبر فتوقظ تلك النفوس وقد عرفتها وفهمتها وحيتها بابتهاج .

واللغة العربية قابلة للانشاء الخطابي اكثر من سواها لوفرة غناها بالالفاظ والتشابيه والاستعارات وما فيها من جزالة لفظ وفخامة تركيب ورنة تسجيع وغير ذلك فاذا ساعدها الاسلوب والخيال كانت على لسان البليغ خمراً تدب في الرؤوس وسحراً يسطو على النفوس .

وربما نزل الانشاء الخطابي احياناً عن نثر الكاتب في دقة المعنى وإحكام المبني الا ان في فصاحة اللهجة وجمال اللفظ وجهارة الصوت وما الى ذلك ما يستر هذا العيب فيخرج السامع مأخوذاً بما سمع وان لم يحفظ منه شيأ قانعاً بما احس من التأثير راضياً بما حصل عليه من اللذة .

الدكتور فياض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net